

الفصل الثاني

المرأة العربية في الجاهلية

- وأد البنات في الجاهلية .
- من عادات الجاهلية في الطلاق
- من عادات الجاهلية في الحداد .

obeikandi.com

المرأة العربية فى الجاهلية

كانت المرأة عند بعض العرب فى الجاهلية تعد جزءاً من ثروة أبيها أو زوجها. وكان ابن الرجل يرث أرملة أبيه بعد وفاته .

وكان العرب قبل الإسلام يرثون النساء كرها ، بأن يأتى الوارث ، ويلقى ثوبه على زوجة أبيه ثم يقول : ورثتها كما ورثت مال أبى . فإذا أراد أن يتزوجها تزوجها بدون مهر ، أو زوجها لأحد عنده ، وتسلم مهرها ممن يتزوجها ، أو حرم عليها أن تتزوج كى يرثها بعد موتها^(١) وفى هذا يقول النازم وهو يعدد مختلقات الجاهلية :-

وأن من ألقى على زوج أبيه ونحوه بعد التوى ثوباً يريه
أولى بها من نفسها إن شاء نكح أو أنكح أو أساء
بالعضل كى يرثها أو تفتدى ومهرها فى النكحتين للردى

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان الرجل إذا مات أبوه أو حموه فهو أحق بامرأته ، إن شاء أمسكها أو يحبسها حتى تفتدى بصادقها ، أو تموت فيذهب بمالها » .

وعن عطاء بن أبي رباح قال : « إن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل فترك امرأة حبسها أهله على الصبي يكون فيهم » ، وحكى ابن جرير رحمه الله : « أن الرجل فى الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه ، فإذا مات ترك امرأته ، فإن سبق وارث الميت فألقى عليها ثوبه ، فهو أحق بها أن ينكحها بمهر صاحبه أو ينكحها فيأخذ مهرها ، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها فهي أحق بنفسها » .

(١) مكانة المرأة فى الإسلام . محمد عطية الإبراشي ص ١٠ .

وقد كان نكاح زوجات الآباء معروفاً فى الجاهلية ، فعله كثير من العرب ، وهذا الذى نهى الله عنه بقوله جل وعلا : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (النساء: ٢٢)

وكان الرجل فى الجاهلية إن أراد أن يتزوج زوجة أخرى أساء إلى زوجته الأولى ، ورمائها فى عرضها ، وأنفق ما أخذه منها على امرأة غيرها ، يريد أن يتزوجها . فحرم الإسلام على الرجال الظلم والبغى فى قوله عز وجل : - ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَبْدِلَ زَوْجَ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴾ (النساء: ٢٠)

وكانت المرأة تمسك ضراراً للاعتداء ، وتلقى من بعلها نشوزاً أو إعراضاً ، وتترك أحياناً كالمعلقة . وكان أحدهم إذا أراد نجابة الولد حمل امرأته - بعد طهرها من الحيض - إلى الرجل النجيب كالشاعر والفارس ، وتركها عنده حتى يستبين حملها منه ، ثم عاد بها إلى بيته ، وقد حملت بنجيب.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كانوا فى الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا ، ويأخذون أجورهم » .

وقال قتادة : « كان الرجل فى الجاهلية يقامر على أهله وماله ، فيقعده حزيناً سلباً ينظر إلى ماله فى يد غيره ، فكانت تورث بينهم عداوة وبغضاً » .

وكان عند العرب فى الجاهلية أنواع من الزواج الفاسد الذى كان يوجد عند كثير من الشعوب ، ولا يزال بعضه إلى اليوم فى البلاد الهمجية :-

● فمنها اشتراك الرهط من الرجال فى الدخول على امرأة واحدة وإعطائها الحق فى الولد أن تلحقه بمن شاءت منهم .

● ومنها نكاح الاستبضاع ، وهو أن يسمح الرجل لزوجته أن تمكن من نفسها رجلاً معيناً من الرؤساء والكبراء المتصفين بالشجاعة أو الكرم ليكون لها منه ولد

مثله ، وقد مر ذلك آنفاً ومنها السفاح بالبغاء العلني ، وكان عند العرب خاصاً بالإماء دون الحرائر ، « وكانوا لا يتخرجون من الزنا ، وهم يتخرجون من ولاية اليتامى » .

● ومنها اتخاذ الأخدان أى الصواحب والعشيقات ، « وكانوا يستترون به ، ويعلدونه لؤماً وخسة » ^(١) .

● ومنها نكاح المتعة وهو المؤقت ، وقد استقر أمر الشريعة على تحريمه وتبيحه فرقة الشيعة الإمامية ^(٢) .

● ومنها نكاح البدل والمبادلة ، وهو أن ينزل كل من الرجلين للآخر عن زوجته .

● ومنها نكاح الشغار ، وهو أن يُزَوَّجَ الرجل بنته أو أخته أو من هى تحت ولايته على أن يزوجه أخرى بغير مهر ، صداق كل واحدة بضعُ الأخرى .

● وأما المرتقون من العرب كقريش فكان نكاحهم هو الذى عليه المسلمون فى الإسلام ، من الخطبة والمهر والعقد ، وهو الذى أقره الإسلام ، مع إبطال العادات الظالمة للنساء فيه ، من استبداد فى تزويجهن كرهاً أو منعهن من الزواج أو أكل مهورهن إلى غير ذلك ^(٣)

● وأد البنات فى الجاهلية

كان من العرب فى الجاهلية من يرون البنت حملاً ثقيلاً وكانوا يتشاءمون بميلاد البنات ، ويضيقون به ، حتى قال أحد الآباء - وقد بشر بأن زوجه ولدت أنثى - : « والله ما هى بنعم الولد ، نصرها بكاء ، وبرها سرقة » .

يريد أنها لا تستطيع أن تنصر أباه وأهلها إلا بالصراخ والبكاء لا بالقتال والسلاح ، ولا أن تبرهم إلا بأن تأخذ من مال زوجها لأهلها .

(١) وهذان النوعان شائعان اليوم فى أوروبا كلها جبراً ، وسرى منها إلى كثير من البلاد الشرقية .

(٢) وهو شائع بمغناه اليوم عند الإفرنج ويسمونه : نكاح التجربة .

(٣) عودة الحجاب محمد أحمد إسماعيل ص ٥٩ : ٦٠ .

وكانت التقاليد المتوارثة عندهم تبيح للأب أن يثد ابنته — يدفنها حية — خشية من فقر قد يقع ، أو عار قد تجلبه حين تكبر على قومها .

وفى ذلك يقول القرآن منكرأ عليهم ومقرعأ لهم :

﴿ وَإِذَا الْمَوْتُ دَدُ سَبِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ (التكوير: ٨-٩).

ويصف حال الآباء عند ولادة البنات: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ ۚ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (النحل: ٥٨-٥٩)

وكانت بعض الشرائع القديمة تعطى الأب الحق فى بيع ابنته إذا شاء ، وبعضها الآخر — كشرعية حمورابي — تجيز له أن يسلمها إلى رجل آخر ليقتلها أو يملكها إذا قتل الأب ابنة الرجل الآخر .

جاء الإسلام فاعتبر البنت — كالابن — هبة من الله ونعمة — يهبها لمن يشاء من عباده : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِمًا ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ قَدِيرٌ ﴾ (الشورى: ٤٩-٥٠)

ويبين القرآن فى قصصه أن بعض البنات قد تكون أعظم أثراً وأخلد ذكراً^(١) .

قال العلامة القرآنى محمد الأمين الشنقيطى رحمه الله تعالى : (وما ذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة من بغضهم للبنات مشهور معروف فى أشعارهم ، ولما خطبت إلى عقيل بن علفة المري ابنته « الحرباء » قال :

وإني وإن سيق إليَّ المهرُ ألفُ وعبدان وذود^(٢) عشرُ
أحب أصهاري إليَّ القبرُ

(١) ملامح المجتمع المسلم الذى نشده . د يوسف القرضاوى ص ٣٣٢ .

(٢) فى القرطبي: (وخور عشر) أ هـ . (١١٨/١) ، جمع حواراة - على غير قياس ، وهو الناقة الغزيرة اللبن .

ويروى لعبد الله بن طاهر قوله :-

لكل أبي بنتٍ يُراعى شئونها ثلاثة أصهارٍ إذا حُمِدَ الصَّهْرُ
فبعل يراعيها ، وخدر يكتُّها وقبر يوارِيها ، وخيرهم القبرُ
وقال بعض الشعراء فى هذا المعنى نفسه :-

جُعِلَتْ فِدَاكَ مِنَ النَّابَاتِ وَمَتَّعَ مَا عَشَتْ فِي الطَّيَاتِ
سُرُورَانِ مَا لَهْمَا ثَالِثُ حَيَاةُ الْبَنِينَ وَمَوْتُ الْبَنَاتِ
وَأَصْدُقُ مِنْ ذَيْنَ قَوْلِ الْحَكِيمِ سِيمِ دَفْنِ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرَمَاتِ

ومن ماثور قولهم لمن «رزئ» بأنثى — على حد تعبيرهم - : (آمنكم الله عارها ، وكفاكم مؤنتها ، وصاهرتم القبر) وهم يزعمون أن موجب رغبتهم فى موتهن ، وشدة كراهيتهن لولادتهن : الخوف من العار ، وتزوج غير الأكفاء ، وأن تهان بناتهن بعد موتهم ، كما قال الشاعر فى ابنة له تسمى «مودة» :-

«مودة» تهوى عمر شيخ يسره لها الموت قبل الليل لو أنها تدرى
يخاف عليها جفوة الناس بعده ولا خفن يرجى أود من القبر

وقال إسحاق بن خلف البهراني فى نفس المعنى :-

لولا أُميمةٌ لم أجزع من العدم ولم أجب فى الليالى حُندس^(١) الظلم
وزادنى رغبة فى العيش معرفتى ذُلُّ الْيَتِيْمَةِ يَجْفُوها ذُوو الرِّحْمِ
تهوى بقائى وأهوى موتهَا شفقاً والموت أكرم نزال على الحرم
أحاذر الفقر يوماً أن يلمَّ بها فيكشف السر عن لحم على وَضَم^(٢)
إذا تذكرت بنى حين تدبني فاضت لرحمة بنى عبوتى بدم^(٣)

(١) شدة الظلام .

(٢) الوضم: الخوان يوضع عليه اللحم ليشوى ، و«لحم على وضم» مثل يضرب لكل ذليل لا يعتصم من مكروهه .

(٣) انظر عودة الحجاب . محمد أحمد إسماعيل ص ٦٩ .

● ومن طرائف ما يروى في ذلك

أنه كان لأبي حمزة الأعرابي زوجتان ، فولدت إحداهما ابنة ، فعز عليه ذلك ، واجتنبها ، وصار في بيت ضررتها ، فأحست به يوماً في بيت صاحبته فجعلت تُرَقِّصُ ابنتها الصغيرة ، وتقول :-

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا تالله ما ذلك في أيدينا
بل نحن كالأرض لزارعينا يلبث ما قد زرعه فينا
وإنما نأخذ ما أعطينا

فعرف أبو حمزة قُبْحَ ما فعل ، وراجع امرأته .

● من عادات الجاهلية في الطلاق

(وكانت النساء أو بعضهن يطلقن الرجال في الجاهلية)

(ولم يكن النساء يومذاك بحاجة إلى المصارحة بالطلاق ، بل كان حسب البدويات منهن أن يحولن أبواب أخبيتهن إن كانت إلى الشرق فإلى الغرب ، أو كانت إلى الجنوب فإلى الشمال)^(١)

(وكان لهن - إذا لم يكن ذوات أخبية - أساليب يدللن بها الرجال على الطلاق ، فليس لهم عليهن من سبيل ، فكان بعضهن إذا تزوجت رجلاً ، وأصبحت عنده كان أمرها إليها ، وتكون علامة ارتضاها للزوج أن تعالج له طعاماً إذا أصبح)^(٢)

● من عادات الجاهلية في الحداد

وكانت المرأة في الجاهلية إذا ذهب الموت بعزيز من آلها وعشيرتها فهناك يجتمع نساء الحي للمأتم ، حواسر الرؤوس ، سوافر الوجوه ، يشققن الجيوب ،

(١) « الأغاني » لأبي الفرج (١٠٢/١٦)

(٢) (المرأة العربية) (٥٧/١ - ٥٨)

ويلطمّن الوجوه ، ويهيّجن الباقيات ، بما يثير الحزن الرابض ، والشجو المميت ، وعادة المناحة على السيد الشريف أن تظل سنة كاملة :

**** ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر ****

وقد كانت العدة في الجاهلية حولاً كاملاً ، وكانت المرأة تحدّ على زوجها شر حداد وأقبحه ، فتلبس شر ملابسها ، وتسكن شر الغرف وهو (الحفّش) ^(١) ، وتترك الزينة والتطيب والطهارة ، فلا تمس ماء ، ولا تقلم ظفراً ، ولا تزيل شعراً ، ولا تبدوا للناس في مجتمعهم ، فإذا انتهى العام خرجت بأقبح منظر ، وأنتن رائحة ، فتنتظر مرور كلب لترمي عليه بكرة احتقاراً لهذه المدة التي قضتها ، وتعظيماً لحق زوجها عليها .

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : جاءت امرأة إلي رسول الله ﷺ فقالت : « يا رسول الله إن ابنتي توفي عنها زوجها ، وقد اشتكت عينها أفنكحلها؟ » فقال رسول الله ﷺ : « لا » ، مرتين أو ثلاثاً ، كل ذلك يقول : « لا » ، ثم قال ﷺ : إنما هي أربعة أشهر وعشر ، وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبرة على رأس الحول « فقالت زينب : (كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشاً ، ولبست شر ثيابها ، ولم تمس طيباً ولا شيئاً حتى تمر عليها سنة ، ثم تؤتى بدابة حمار أو طير أو شاة فتفتض به ^(٢) ، فقلما تفتض بشيء إلا مات ، ثم تخرج فتعطى بكرة فترمي بها ، ثم تراجع بعد ما شاءت من طيب أو غيره) ^(٣) »

وكان من عوائد النساء في الجاهلية بدعة «الإسعاد» ، ومعناه إعانة النساء بعضهن بعضاً في النياحة بموت الميت ، فكان النساء يسرعن لمساعدة صاحبة الميت في النوح والبكاء ، وتصير المساعدة ديناً في ذمة المرأة المصابة ترى وجوب تأديته لكل من ساعدها ^(٤) .

(١) الحفّش : البيت الصغير المظلم داخل البيت .

(٢) تفتض به أي تمسح قبلها به فلا يكاد يعيش ما تفتض به والمراد أنه يموت من نيتها .

(٣) رواه البخاري ومسلم ومالك في الموطأ .

(٤) انظر عودة الحجاب ص ٦١-٦٢ .